

واضحات، على صدق هذا القرآن العظيم، وصحة ما اشتمل عليه من الحكم والأحكام، ودالات أيضاً على ما لله تعالى من الكمال، وعلى البعث والنشور.

ثم قسم تعالى الناس، بالنسبة إلى الانتفاع بآياته وعدمه، إلى قسمين:

قسم يستدلون بها، ويتفكرون بها، ويتفتنون فيرتفعون، وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، إيماناً تاماً، وصل بهم إلى درجة اليقين، فزكى منهم العقول، وازدادت به معارفهم وأبوابهم وعلومهم.

وقسم يسمع آيات الله سماعاً تقوم به الحجة عليهم، ثم يعرض عنها ويستكبر، كأنه ما سمعها، لأنها لم تترك قلبه، ولا طهرته، بل بسبب استكباره عنها ازداد طغيانه.

وأنه إذا علم من آيات الله شيئاً اتخذها هزواً، فتوعده الله تعالى بالويل فقال:

﴿ويل لكل أفكك أثيم﴾ أي: كذاب في مقاله، أثيم في فعاله.

وأخبر أن له عذاباً أليماً، وأن «من ورائهم جهنم» تكفي في عقوبتهم البليغة.

وأنه «لا يغني عنهم ما كسبوا» من الأموال «ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء» يستنصرون بهم فخذلهم، أحوج ما كانوا إليهم لو نفعا.

فلما بين آياته القرآنية والعيانية، وأن الناس فيها على قسمين، أخبر أن القرآن المشتمل على هذه المطالب العالية، أنه هدى، فقال: «هذا هدى» وهذا وصف عام لجميع القرآن، فإنه يهدي إلى معرفة الله تعالى، بصفاته المقدسة، وأفعاله الحميدة، ويهدي إلى معرفة رسله، وأوليائه، وأعدائه، وأوصافهم، ويهدي إلى الأعمال الصالحة ويدعو إليها، ويبين الأعمال السيئة وينهى عنها، ويهدي إلى بيان الجزاء على الأعمال، ويبين الجزاء الدنيوي والأخروي، فالملتدون اهتدوا به، فأفلحوا وسعدوا، «والذين كفروا

لعلهم يتذكرون» ما فيه نفعهم في فعلونه، وما فيه ضررهم في تركونه.

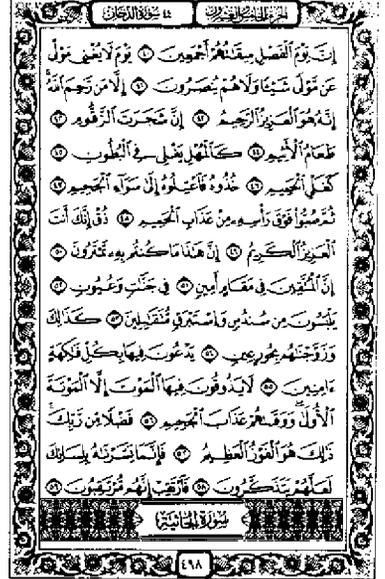
﴿فارتقب﴾ أي: انتظر ما وعدك ربك من الخير والنصر، «إنيهم مرتقبون» ما يحل بهم من العذاب، وفرق بين الارتقابين: رسول الله وأتباعه يرتقبون الخير في الدنيا والآخرة، وضدهم يرتقبون الشر في الدنيا والآخرة.

تم تفسير سورة الدخان،
والله الحمد والمنة

تفسير سورة الجاثية مكية

﴿١١-١﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * إن في السماوات والأرض لايات للمؤمنين * وفي خلقكم وما بيث من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون * تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فيأبى: حديث بعد الله وآياته يؤمنون * ويل لكل أفكك أثيم * يسمع آيات الله تتل عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم * وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين * من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم * هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم» يجبر تعالى خيراً يتضمن الأمر بتعظيم القرآن والاعتناء به، أنه «تنزيل» «من الله» المألوه المعبود، لما اتصف به من صفات الكمال، وانفرد به من النعم، الذي له العزة الكاملة والحكمة التامة، ثم أيد ذلك بما ذكره من الآيات الأفقية والنفسية، من خلق السماوات والأرض، وما بث فيهما من الدواب، وما أودع فيهما من المنافع، وما أنزل الله من الماء، الذي يجي به الله البلاد والعباد.

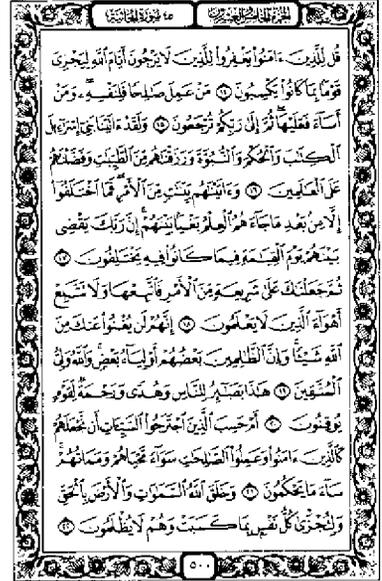
فهذه كلها آيات بينات، وأدلة



بحار الطرف في حسنهن، وينبهر العقل بجمالهن، وينخلب اللب لكمالهن، «عين» أي: ضخام العين حسنا.

﴿يدعون فيها﴾ أي: الجنة «بكل فاكهة» مما له اسم في الدنيا، ومما لا يوجد له اسم، ولا نظير في الدنيا، فمهما طلبوه من أنواع الفاكهة وأجناسها، أحضر لهم في الحال، من غير تعب ولا كلفة، «آمنين» من انقطاع ذلك، وآمنين من مضرتهم، وآمنين من كل مكدر، وآمنين من الخروج منها والموت، ولهذا قال: «لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى» أي: ليس فيها موت بالكلية، ولو كان فيها موت يستثنى، لم يستثن الموتة الأولى، التي هي الموتة في الدنيا، فتم لهم كل محبوب مطلوب، «ووقاهم عذاب الجحيم * فضلاً من ربك» أي: حصول النعيم واندفاع العذاب عنهم، من فضل الله عليهم وكرمه، فإنه تعالى هو الذي وفقهم للأعمال الصالحة، التي بها نالوا خير الآخرة، وأعطاهم أيضاً ما لم تبلغه أعمالهم، «ذلك هو الفوز العظيم» وأي: فوز أعظم من نيل رضوان الله ووجته، والسلامة من عذابه وسخطه؟

﴿فإنما يسرناه﴾ أي: القرآن «بلسانك» أي: سهلناه بلسانك الذي هو أفصح اللسان على الإطلاق وأجلها، فيسر به لفظه، ويسر معناه.



﴿٢٠﴾ ﴿هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون﴾ أي: ﴿هذا﴾ القرآن الكريم والذكر الحكيم ﴿بصائر للناس﴾ أي: يحصل به التبصرة في جميع الأمور للناس، فيحصل به الانتفاع للمؤمنين، والهدى والرحمة.

﴿لقوم يوقنون﴾ فيهدتون به إلى الصراط المستقيم، في أصول الدين وفروعه، ويحصل به الخير والسرور، والسعادة في الدنيا والآخرة، وهي الرحمة، فتزكو به نفوسهم، وتزداد به عقولهم، ويزيد به إيمانهم ويقينهم، وتقوم به الحجة على من أصر وعاند.

﴿٢١﴾ ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾ أي: أم حسب المسيؤون، المكشرون من الذنوب، المقصرون في حقوق ربهم.

﴿أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ بأن قاموا بحقوق ربهم، واجتنبوا مساخطه، ولم يزالوا مؤثرين رضاه على هوى أنفسهم؟ أي: أحسبوا أن يكونوا ﴿سواء﴾ في الدنيا والآخرة؟ ساء ما ظنوا وحسبوا، وساء ما حكموا به، فإنه حكم يخالف حكمة أحكم الحاكمين، وخير العادلين، ويناقض العقول السليمة، والفطر المستقيمة، ويضاد ما نزلت به الكتب، وأخبرت به الرسل، بل الحكم الواقع القطعي، أن المؤمنين العاملين الصالحات، لهم النصر والفلاح والسعادة والشواب، في العاجل والآجل، كل على قدر إحسانه، وأن المسيئين لهم الغضب والإهانة، والعذاب والشقاء، في الدنيا والآخرة.

﴿٢٢﴾ ﴿وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولنجزي كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾ أي: خلق الله السماوات والأرض بالحكمة، وليعبد وحده لا شريك له، ثم يجازي بعد ذلك من أمرهم بعبادته، وأنعم عليهم بالنعمة الظاهرة والباطنة، هل شكروا الله تعالى، وقاموا بالأمور؟ أم كفروا، فاستحقوا جزاء الكفور؟

﴿٢٣-٢٦﴾ ﴿أفرأيت من اتخذ إليه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا اتوا بآياتنا إن كنتم صادقين﴾ قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ يقول تعالى: ﴿أفرأيت﴾ الرجل الضال الذي ﴿اتخذ إليه هواه﴾ فما هويه سلكه، سواء كان يرضي الله أو يسخطه. ﴿وأضله الله على علم﴾ من الله تعالى، أنه لا تليق به الهداية، ولا يذكو عليها. ﴿وختم على سمعه﴾ فلا يسمع ما ينفعه، ﴿وقلبه﴾ فلا يعي الخير، ﴿وجعل على بصره غشاوة﴾ تمنعه من نظر الحق، ﴿فمن يهديه من بعد الله﴾ أي: لا أحد يهديه، وقد سد الله عليه أبواب الهداية، وفتح له أبواب الغواية، وما ظلمه الله، ولكن هو ظلم نفسه، وتسبب لمنع رحمة الله عليه ﴿أفلا تذكرون﴾ ما ينفعكم فتسلكونه، وما يضركم فتجتنبونه.

﴿وقالوا﴾ أي: منكرو البعث ﴿ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾ أي: إن هي إلا عادات، وجزئي على رسوم الليل والنهار، يموت أناس، ويحيا أناس، ومامات فليس يرجع إلى الله، ولا يجازيه بعمله.

وقولهم هذا صادر عن غير علم ﴿إن هم إلا يظنون﴾ فأنكروا المعاد وكذبوا الرسل الصادقين، من غير دليل دلهم على ذلك ولا برهان.

إن هي إلا ظنون، واستبعادات خالية عن الحقيقة، ولهذا قال تعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا اتوا بآياتنا إن كنتم صادقين﴾ وهذا جراءة منهم على الله،

الاختلاف، وإنما حملهم على الاختلاف البغي من بعضهم على بعض، والظلم.

﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ فميز الحق من المبطل، والذي حمله على الاختلاف، الهوى أو غيره.

﴿١٨-١٩﴾ ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾ إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين﴾ أي: ثم شرعنا لك شريعة كاملة تدعو إلى كل خير، وتنهى عن كل شر، من أمرنا الشرعي ﴿فاتبعها﴾ فإن في اتباعها السعادة الأبدية، والصلاح والفلاح، ﴿ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾ أي: الذين تكون أهويتهم غير تابعة للعلم، ولا ماشية خلفه، وهم كل من خالف شريعة الرسول ﷺ هواء وإرادته، فإنه من أهواء الذين لا يعلمون.

﴿إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً﴾ أي: لا ينفعونك عند الله، فيحصلوا لك الخير، ويدفعوا عنك الشر، إن اتبعتهم على أهوائهم، ولا تصلح أن توافقهم وتواليهم، فإنك وإياهم متباينون، وبعضهم ولي لبعض ﴿والله ولي المتقين﴾ يخرجهم من الظلمات إلى النور، بسبب تقواهم وعملهم بطاعته.

وفقتم لها، ولكن استكبرتم عنها، وأعرضتم، وكفرتم بها، فجئنيتم أكبر جنانية، وأجرمتم أشد الجرم، فاليوم تجزون ما كنتم تعملون، ويوبخون أيضاً بقوله: ﴿وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم﴾ منكرين لذلك: ﴿ما تدري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين﴾.

فهذه حالهم في الدنيا، وحال البحث الإنكار له، ورد قول من جاء به. قال تعالى: ﴿وبدا لهم سيئات ما عملوا﴾ أي: وظهر لهم يوم القيامة عقوبات أعمالهم، ﴿وحاق بهم﴾ أي: نزل ﴿ما كانوا به يستهزؤون﴾ أي: نزل بهم العذاب، الذي كانوا في الدنيا يستهزؤون به وبوقوعه وبمن جاء به. ﴿وقيل اليوم نساكم﴾ أي: نترككم في العذاب ﴿كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ فإن الجزء من جنس العمل، ﴿وما أوامركم النار﴾ أي: هي مقركم ومصيركم، ﴿وما لكم من ناصرين﴾ ينصرونكم من عذاب الله، ويدفعون عنكم عقابه.

﴿ذلكم﴾ الذي حصل لكم من العذاب ﴿به﴾ سبب ﴿أنكم اتخذتم آيات الله هزواً﴾ مع أنها موجبة للجد والاجتهاد، وتلقيها بالسرور والاستبشار والفرح.

﴿وغرتم الحياة الدنيا﴾ بزخارفها ولذاتها وشهواتها، فاطمأنتم إليها، وعملتكم لها، وتركتم العمل للدار الباقية.

﴿فاليوم لا يفرجون منها ولا هم يستعتبون﴾ أي: ولا يمهلون، ولا يردون إلى الدنيا ليعملوا صالحاً.

﴿قلله الحمد﴾ كما ينبغي لجلاله وعظيم سلطانه ﴿رب السماوات ورب الأرض رب العالمين﴾ أي: له الحمد على ربوبيته لسائر الخلائق، حيث خلقهم ورباهم، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، ﴿وله الكبرياء في السماوات والأرض﴾ أي: له الجلال والعظمة والمجد.

فالحمد فيه الثناء على الله بصفات الكمال، ومحبه تعالى وإكرامه،

أليم العقاب.

ثم وصف تعالى شدة يوم القيامة وهوله ليحذره العباد، ويستعد له العباد، فقال: ﴿وترى﴾ أيها الرائي لذلك اليوم ﴿كل أمة جاثية﴾ على ركبها خوفاً وذعراً، وانتظاراً لحكم الملك الرحمن.

﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ أي: إلى شريعة نبيهم الذي جاءهم من عند الله، وهل قاموا بها فيحصل لهم الثواب والنجاة؟ أم ضيعوها فيحصل لهم الخسران؟ فأمة موسى يدعون إلى شريعة موسى، وأمة عيسى كذلك، وأمة محمد كذلك، وهكذا غيرهم، كل أمة تدعى إلى شرعها الذي كلفت به، هذا أحد الاحتمالات في الآية، وهو معنى صحيح في نفسه، غير مشكوك فيه، ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ أي: إلى كتاب أعمالها، وما سطر عليها من خير وشر، وأن كل أحد يجازى بما عمله بنفسه، كقوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾.

ويحتمل أن المعنيين كليهما مراد من الآية، ويدل على هذا قوله: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ أي: هذا كتابنا الذي أنزلنا عليكم، يفصل بينكم بالحق الذي هو العدل، ﴿إننا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ فهذا كتاب الأعمال، ولهذا فصل ما يفعل الله بالفريقين فقال: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ إيماناً صحيحاً، وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة، من واجبات ومستحبات، ﴿فيدخلهم ربهم في رحمته﴾ التي عملها الجنة، وما فيها من النعيم المقيم، والعيش السليم، ﴿ذلك هو الفوز المبين﴾ أي: المفاض والنجاة والريح، والفلاح الواضح البين، الذي إذا حصل للعبد، حصل له كل خير، واندفع عنه كل شر.

﴿وأما الذين كفروا﴾ بالله، فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿أفلم تكن آياتي تتلى عليكم﴾ وقد دلتم على ما فيه صلاحكم، ونهتكم عما فيه ضرركم، وهي أكبر نعمة وصلت إليكم، لو

حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وزعموا أن صدق رسل الله متوقف على الإتيان بأبائهم، وأنهم لو جاؤوهم بكل آية لم يؤمنوا، إلا إن تبعتهم الرسل على ما قالوا وهم كذبة فيما قالوا، وإنما قصدهم دفع دعوة الرسل، لا بيان الحق، قال تعالى: ﴿قل الله يجيبكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ وإلا فلن وصل العلم باليوم الآخر إلى قلوبهم، لعملوا له أعمالاً وتهيؤوا له.

﴿٢٧ - ٣٧﴾ ﴿والله ملك

السماوات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ ينصر البيطلون * وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون * هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إننا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين * وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين * وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما تدري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين * وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون * وقيل اليوم نساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا وما أوامركم النار وما لكم من ناصرين * ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتم الحياة الدنيا فاليوم لا يفرجون منها ولا هم يستعتبون * قلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين * وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ يخبر تعالى عن سعة ملكه، وانفراده بالتصرف والتدبير في جميع الأوقات، وأنه ﴿يوم تقوم الساعة﴾ ويجمع الخلائق لموقف القيامة، يحصل الخسران على البيطلين، الذين أتوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وكانت أعمالهم باطلة، لأنها متعلقة بالباطل، فبطلت في يوم القيامة، اليوم الذي تستبين به الحقائق، واضمحلت عنهم، وفاتهم الثواب، وحصلوا على

أنبؤوا أشجاراً؟ هل كان منهم معاونة على خلق شيء من ذلك؟

لا شيء من ذلك، بإقرارهم بأنفسهم، فضلاً عن غيرهم، فهذا دليل عقلي قاطع على أن كل من سوى الله، فعبادته باطلة.

ثم ذكر انتفاء الدليل النقلى، فقال: ﴿اتنوني بكتاب من قبل هذا﴾ الكتاب يدعو إلى الشرك، ﴿أو آثارة من علم﴾ مروروث عن الرسل يأمر بذلك. من المعلوم أنهم عاجزون أن يأتوا عن أحد من الرسل بدليل يدل على ذلك، بل تجزم وتتيقن أن جميع الرسل دعوا إلى توحيد ربهم، ونهوا عن الشرك به، وهي أعظم ما يؤثر عنهم من العلم، قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ وكل رسول قال لقومه: ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ فعمل أن جدال المشركين في شركهم، غير مستدين فيه على برهان ولا دليل، وإنما اعتمدوا على ظنون كاذبة، وآراء كاسدة، وعقول فاسدة.

يدلُّك على فسادهما استقراء أحوالهم، وتتبع علومهم وأعمالهم، والنظر في حال من أفنوا أعمارهم بعبادته، هل أفادهم شيئاً في الدنيا أو في الآخرة؟ ولهذا قال تعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾ أي: مدة مقامه في الدنيا، لا ينتفع به بمشقال ذرة، ﴿وهم عن دعائهم غافلون﴾ لا يسمعون منهم دعاء، ولا يجيبون لهم نداء، هذا حالهم في الدنيا، ويوم القيامة يكفرون بشركهم. ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء﴾ يلعن بعضهم بعضاً، ويتبرأ بعضهم من بعض ﴿وكانوا بعبادتهم كافرين﴾

﴿٧٠-١٠﴾ ﴿وإذا تلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين﴾ أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما

سيجدون ثوابها في تلك الدار كاملاً موفراً.

وأقام تعالى الأدلة الدالة على تلك الدار، وأذاق العباد نموذجاً من الثواب والعقاب العاجل، ليكون أدعى لهم إلى طلب المحبوب، والهرب من المرهوب، ولهذا قال هنا: ﴿ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ أي: لا عبثاً ولا سدى، بل ليعرف العباد عظمة خالقهما، ويستدلوا على كماله، ويعلموا أن الذي خلقهما على عظمهما، قادر على أن يعيد العباد بعد موتهم للجزاء، وأن خلقهما ببقاءهما مقدر إلى ﴿أجل مسمى﴾.

فلما أخبر بذلك - وهو أصدق القائلين وأقام الدليل، وأثار السبيل أخبر - مع ذلك - أن طائفة من الخلق قد أبوا إلا إعراضاً عن الحق، وصدوقاً عن دعوة الرسل، فقال: ﴿والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾ وأما الذين آمنوا، فلما علموا حقيقة الحال قبلوا وصايا ربهم، وتلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالانقياد والتعظيم، ففازوا بكل خير، واندفع عنهم كل شر.

﴿٤٦-٦﴾ ﴿قل أرايتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من السماوات الأرض ثم لهم شرك في السماوات اتنوني بكتاب من قبل هذا أو آثارة من علم إن كنتم صادقين﴾ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ أي: أوشاناً وأنداداً، لا تملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، قل لهم - مبيئاً عجز أوثانهم، وأنها لا تستحق شيئاً من العبادة -: ﴿أروني ماذا خلقوا من السماوات أم لهم شرك في السماوات﴾ هل خلقوا من أجرام السماوات والأرض شيئاً؟ هل خلقوا جبلاً؟ هل أجروا أنهاراً؟ هل نشروا حيواناً؟ هل

والكبرياء فيها عظمته وجلاله، والعبادة مبنية على ركنين، محبة الله، والذل له، وهما ناشتان عن العلم بمحامد الله وجلاله وكبريائه.

﴿وهو العزيز﴾ القاهر لكل شيء، ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا يشرع ما يشرع إلا لحكمة ومصالحة، ولا يخلق ما يخلق إلا لفائدة ومنفعة.

تم تفسير سورة الأحقاف، والله الحمد
والنعمة والفضل

تفسير سورة الأحقاف مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴿ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾ هذا ثناء منه تعالى على كتابه العزيز وتعظيم له، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى الاهتداء بنوره، والإقبال على تدبر آياته، واستخراج كنوزه.

ولما بين إنزال كتابه المتضمن للأمر والنهي، ذكر خلقه السماوات والأرض، فجمع بين الخلق والأمر، ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ كما قال تعالى: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن﴾ وكما قال تعالى: ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون﴾ خلق السماوات والأرض بالحق ﴿فالله تعالى هو الذي خلق الكافرين، وخلق مساكنهم، وسخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، ثم أرسل إليهم رسوله، وأنزل عليهم كتابه، وأمرهم ونهاهم، وأخبرهم أن هذه الدار دار أعمال وممر للعامل، لا دار إقامة لا يرحل عنها أهلها، وأنهم سينتقلون منها إلى دار الإقامة والقرار، وموطن الخلود والدوام، وإنما أعمالهم التي عملوها في هذه الدار،

غيرها. ﴿ونتجاوز عن سيئاتهم﴾ في جملة ﴿أصحاب الجنة﴾ فحصل لهم الخير والمحبوب، وزال عنهم الشر والمكروه.

﴿وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾ أي: هذا الوعد الذي وعدناهم هو وعد صادق من أصدق القائلين، الذي لا يخلف الميعاد.

﴿١٧ - ١٩﴾ ﴿والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين﴾ أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ﴿ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾ لما ذكر تعالى حال الصالح البار لوالديه، ذكر حال العاق، وأنها شر الخالات، فقال: ﴿والذي قال لوالديه﴾ إذ دعواه^(١) إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وخوفاه الجزاء.

وهذا أعظم إحسان يصدر من الوالدين لولدهما، أن يدعوها إلى ما فيه سعادتة الأبدية، وفلاحه السرمدي، فقابلتهما بأقبح مقابلة، فقال: ﴿أف لكما﴾ أي: تبا لكما ولما جتما به.

ثم ذكر وجه استعباده وإنكاره لذلك فقال: ﴿أتعدانني أن أخرج﴾ من قبيري إلى يوم القيامة ﴿وقد خلت القرون من قبلي﴾ على التكذيب، وسلفوا على الكفر، وهم الأئمة المقتدى بهم لكل كفور وجهول ومعاذ؟ ﴿وهما﴾ أي: والداه ﴿يستغيثان الله﴾ عليه، ويقولان له: ﴿ويلك آمن﴾ أي: يبذلان غاية جهدهما، ويسعيان في هدايته أشد السعي، حتى إنهما - من حرصهما عليه - أنهما يستغيثان الله له، استغاثة الغريق، ويسألانه سؤال الشريق، ويعذلان ولدهما، ويتوجعان له، ويبينان له الحق، فيقولان: ﴿إن وعد الله حق﴾ ثم يقيمان عليه من الأدلة ما أمكنهما، ولدهما لا يزداد

وما قاسته من المكاره وقت حملها، ثم مشقة ولادتها المشقة الكبيرة، ثم مشقة الرضاع وخدمة الحضانة، وليست المذكورات مدة يسيرة، ساعة أو ساعتين، وإنما ذلك مدة طويلة قدرها ﴿ثلاثون شهراً﴾: للحمل تسعة أشهر ونحوها، والباقي للرضاع، هذا الغالب.

ويستدل هذه الآية مع قوله: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، لأن مدة الرضاع - وهي سنتان - إذا سقطت من الثلاثين شهراً، بقي ستة أشهر، مدة للحمل ﴿حتى إذا بلغ أشده﴾ أي: نهاية قوته وشبابه، وكمال عقله، ﴿وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني﴾ أي: ألهمني ورفقني ﴿أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي﴾ أي: نعم الدين، ونعم الدنيا، وشكره بصرف النعم في طاعة مسديها وموليها، ومقابلته بثنة، بالاعتراف والعجز عن الشكر، والاجتهاد في الشناء بها على الله، والنعم على الوالدين، نعم على أولادهم وذريرتهم، لأنهم لا بد أن ينالهم منها ومن أسبابها وآثارها، خصوصاً نعم الدين، فإن صلاح الوالدين بالعلم والعمل، من أعظم الأسباب لصلاح أولادهم.

﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾ بأن يكون جامعاً لما يصلحه، سالماً عما يفسده، فهذا العمل الذي يرضاه الله ويقبله، ويشيب عليه. ﴿وأصلح لي في ذريتي﴾ لما دعا لنفسه بالصلاح، دعا لذريته أن يصلح الله أحوالهم، وذكر أن صلاحهم يعود نفعه على والديهم، لقوله: ﴿وأصلح لي﴾.

﴿إني تبت إليك﴾ من الذنوب والمعاصي، ورجعت إلى طاعتك ﴿وإني من المسلمين﴾

﴿أولئك﴾ الذين ذكرت أوصافهم ﴿الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا﴾ وهو الطاعات، لأنهم يعملون أيضاً



وداموا على ذلك، و ﴿استقاموا﴾ مدة حياتهم ﴿فلا خوف عليهم﴾ من كل شر أمامهم، ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما خلفوا وراءهم، ﴿أولئك أصحاب الجنة﴾ أي: أهلها الملامون لها، الذين لا يبغون عنها حولا، ولا يريدون بها بدلا، ﴿خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون﴾ من الإيمان بالله، المقتضي للأعمال الصالحة التي استقاموا عليها.

﴿١٥ - ١٦﴾ ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين﴾ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ﴿هذا من لطفه تعالى بعباده وشكره للوالدين، أن وصى الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف، والكلام اللين، وبذل المال والنفقة، وغير ذلك من وجوه الإحسان.

ثم نبه على ذكر السبب الموجب لذلك، فذكر ما تحمّلت الأم من ولدها